

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٨٩٧ : خ ١ - علاقة المرء بوالديه ، خ ٢ - عن التدخين (رسالة إلى مدخن مسلم).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠٣-٠٩-٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله نحده ، ونستعين به ونسترشد به ، وننحوذ به من شرور أنفسنا وسبيئات أعمالنا ، من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضل فلن تجد له ولیاً مرشدًا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جد به وكفر ، وأشهد أن سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم رسول الله سيد الخلق والبشر ، ما اتصلت عين بنظر أو سمعت أذن بخبر ، اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

العلاقة بالوالدين :

أيها الأخوة الكرام : في سورة لقمان آيات فيها وصية لقمان لابنه ، وفي هذه الآيات قواعد دقيقة من أبرز موضوعات هذه الوثيقة العلاقة بالوالدين .

أيها الأخوة ، قيل : الفضيلة وسط بين طرفين ، فالشجاعة مثلاً بين التهور وبين الجبن ، والكرم بين الإسراف والتبذير وبين البخل ، والعلاقة بالوالدين إما أن يكون فيها إفراط فيطاع الأب في كل معصية تقديساً له ، وإما أن يكون فيها تفريط فلا يعطى حقه ، والإسلام إليها الأخوة منهج وسطي ، يقول الله عز وجل :

(وَإِذْ قَالَ لُقَمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنْيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
بِوَالِدِيهِ)

[سورة لقمان : ١٤ - ١٣]

قد تعجبون أيها الأخوة أنه في كتاب الله كله قلما تجد آية توصي الآباء بالأولاد إلا آية واحدة متعلقة بالإرث :

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُمْ لِلذِّكْرِ مِثْ حَظَ الْأَنْثَيَيْنِ)

[سورة النساء : ١١]

وفي آية أخرى :

(وَلَا تَقْتُلُوا أُولُادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٌ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِبَّاَكُمْ)

[سورة الإسراء : ٣١]

وما سوى هاتين الآيتين لا تجد آية توصي الآباء بالأبناء لماذا ؟ لأن محبة الأبناء والحرص عليهم وتمني تفوقهم طبع مركب في أصل الإنسان ، كما أنه لا معنى أن يصدر قرار يوجب الناس بتناول طعام الإفطار ، كلام لا معنى له إطلاقاً ، لأن الدافع إلى الطعام مركز في أصل تركيب الإنسان ، إذاً الشيء الذي ركب في أصل الطبع لا يحتاج لا إلى أمر ، ولا إلى نهي ، والشيء الذي يلفت النظر إليها الأخوة من أجل أن تستمر الحياة أية أم مؤمنة أو كافرة ، ملتزمة أو متقللة ، محجبة أو سافرة ، مثقفة أو جاهلة ، حريرة على ابنها حرصاً لا حدود له ، من أجل أن تستمر الحياة ، وكأن الله أودع محبته للأطفال من خلال أبنائهم وأمهاتهم ، فهذا الاندفاع الشديد إلى العناية بالأبناء فطرة في أصل الإنسان ، أنا لا أقول لا يؤجر عليها ولكن هذا الاندفاع كسي بقدر ما هو فطري ، إذاً أن تندفع على حرص سلامة الابن ، سلامة جسمه من الأمراض ، وتأمين طعامه وشرابه وكسانه هذا مركوز في أصل فطرة الإنسان ، أما حينما تحرص على دينه وعلى مستقبله في الآخرة ، وعلى استقامته ، وعلى معرفة ربها ، فهذا جهد إضافي يمكن أن تثاب عليه ، لأن خير كسب الرجل ولده ، بهذا المعنى ما من أب إلا ويسأل زوجته كيف حال الأولاد ؟ هل تناولوا طعامهم ؟ لكن قلما ينتبه الآباء إلى دين أبنائهم ، وإلى أخلاق أبنائهم ، فلذلك يعد الحرص على سلامة الأولاد ، وعلى صحتهم ، وعلى تحصيلهم الدراسي ، يعد شيئاً مركزاً في أصل الفطرة ، أما حينما يحرص الآباء المؤمنون على سلامة عقيدة أبنائهم ، وعلى سلامة استقامة أبنائهم فهذا عمل كسي ، لذلك قال تعالى :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوكُمْ دُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانِ الْحَقْتَانِ بِهِمْ دُرِّيَّتُهُمْ وَمَا أَنْتَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرَئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

[سورة الطور : ٢١]

قال بعض المفسرين : أحقتا بهم أعمال ذريتهم :

(وَمَا أَنْتَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرَئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

[سورة الطور : ٢١]

الحكمة من جعل بر الوالدين تكليفاً وليس طبعاً :

أيها الأخوة الكرام ، فلا معنى إذاً أن تقرأ آيات كثيرة توصي الآباء بأبنائهم ، ولكن بر الوالدين ليس طبعاً بل هو تكليف ، قد يستمتع الابن بأعلى درجات الحياة دون أن يكون باراً بوالديه ، قد يستمتع بزوجته وأولاده ولا يعبأ بوالديه ، لذلك ليس من الطبع بر الآباء ، بل من التكليف من هنا جاءت الآيات الكثيرة المتعددة التي توصي الأبناء ببر الآباء .

أيها الأخوة الكرام ، شيءٌ لطيف هو أن هذه الوصايا المتكررة ليلتفت الجيل الذي تلقى هذه العناية الفائقة للجيل الذي ضحى ، ليتلقى الذاهب في أدبار الحياة عناء ، لمن وهب لأولاده كل ما يملك ، لمن سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه نحو المستقبل ، دين ووفاء ، أب يضحي وأم تضحي وابن يوفي ، هذه سنة الله في الأرض ، من أجل أن تستمر الحياة جعل محبة الأبناء طبعاً ، ومن أجل أن يرتفقي الإنسان عند الله جعل بر الوالدين تكليفاً ، فرق كبير بين ما هو طبع وبين ما هو تكليف .

آيات كثيرة توصي الأبناء بآبائهم :

أيها الأخوة الكرام ، إلى الآيات :

(وَوَصَّيْنَا إِلَيْهِ ابْنَاهُ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَةً كُرْهًا وَحَمْلَهُ وَفِصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشْدَهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبُّ أُوزْعَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالَّدِيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا ثَرْضَاهُ وَأَصْلَحُ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِلَيْكَ وَإِلَيْيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة الأحقاف : ١٥]

هذه الآية الأولى " وَوَصَّيْنَا إِلَيْهِ ابْنَاهُ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنَ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوَالَّدِيَّ . واحدة هو الإحسان .

آية ثانية :

(وَوَصَّيْنَا إِلَيْهِ ابْنَاهُ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنَ أَنْ أَشْكُرْ لِي وَلَوَالَّدِيَّ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

[سورة لقمان : ١٤]

أيها الأخوة الكرام ، لا يخفى عنكم أن العطف يقتضي المشاركة ، فالله سبحانه وتعالى رفع الإحسان إلى الوالدين إلى مستوى عبادته عن طريق العطف .

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَيْاهُ وَبِالوَالَّدَيْنِ إِحْسَانًا)

[سورة الإسراء : ٢٣]

لا يعقل أن تقول أنت مثلاً : اشتريت مئة دنم من الأرض وملعقة ، لا يتاسب هذان الشبيتان في العطف ، تقول : اشتريت أرضاً وبيتاً ، مرکبة ومحلاً ، هكذا .

(وَوَصَّيْنَا إِلَيْهِ ابْنَاهُ حَسْنًا وَإِنْ جَاهَكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَانْبِئُوكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة العنكبوت : ٨]

آية ثالثة ، فالله عز وجل يوصي الأبناء بآبائهم ، الإحسان شيء والعبادة شيء آخر ، العبادة لله وحده ، والإحسان للوالدين .

حق المرأة :

قال بعض العلماء أيها الأخوة : المرأة في الأصل ضعيفة وقد وصانا النبي بالضعفين المرأة واليتم ، فإذا حملت تزداد ضعفاً على ضعف لأن حاجة الجنين مقدمة على حاجاتها ، لذلك الجنين يأخذ من عظام أمه حاجاته من الكلس وقد تتأثر الأم وقد تصاب بهشاشة العظام ، لأن حاجة الجنين مقدمة على حاجتها ، إذا :

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامِيْنِ)

[سورة لقمان : ١٤]

أيها الأخوة ، بعض الأطباء في بعض بحوثهم يجد أن حالة تصيب المرأة في الشهر الخامس من حملها هي الإقياء وما إلى ذلك وتشتهي بعض المطعومات ، هناك بعض الأطباء يتوجه إلى أن هذه الشهوة الطارئة وقد تكون غريبة في الأم هي حاجة الجنين إلى هذه المواد ، فكأن كيان الأم كله مرتبط بنمو الجنين :

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ)

[سورة لقمان : ١٤]

أيها الأخوة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله :

((من أحق الناس بحسن صاحبتي ؟ قال " أمك " قال : ثم من ؟ قال " أمك " قال ثم من ؟ قال " أمك " قال : ثم من ؟ قال " أبوك "))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

لذلك حينما سئل النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((أعظم الناس حقاً على المرأة زوجها ، وأعظم الناس حقاً على الرجل أمه))

[الحاكم عن عائشة رضي الله عنها]

(وَوَصَّيْنَا إِنْسَانَ بِوَالِدِيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهُنَّ عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامِيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيْكَ
إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

[سورة لقمان : ٤]

شكر الله على نعمة الإيمان والوالدين على نعمة التربية :

الوالدان وهباك نعمة الإيجاد ، والله عز وجل تولاك بنعمة الإمداد ثم بنعمة الهدى والرشاد :
(أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيْكَ)

[سورة لقمان : ٤]

من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ثم إن الله سبحانه وتعالى من باب الحكمة البالغة يضع ردعأً لمن يتطلع إلى عقوق الوالدين ، قال :

(أَن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

[سورة لقمان : ١٤]

سوف ترجع إلى وسوف أحاسبك ، لم عققت والديك ؟ لم حفقت ما تحتاجه ولم تعبأ بحاجات أمك وأبيك ؟ لم لم تعبأ بسلامتهما من الأمراض ؟ لم لم تقدم لها خير ما عندك لأنهما قدما خيراً ما عندهم ؟

أيها الأخوة الكرام : بعض العلماء فصل قال :

(أَن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ)

[سورة لقمان : ١٤]

أن اشكر لي نعمة الإيمان ولوالديك نعمة التربية ، فالابن الذي تلقى تربية عالية نعمة لا تعدلها نعمة ، تلقى تربية عالية ؛ تربية دينية ، وأخلاقية ، وعلمية ، وجسمية ، ونفسية ، واجتماعية ، الابن الذي تلقى هذه التربية العالية هذه نعمة يجب أن يشكر والديه عليها .

عظم مكانة الأب قبل الإسلام و بعده :

أيها الأخوة الكرام : وكان العرب في جاهليتهم إذا أرادوا أن يسبوا إنساناً يقولون لا أبا لك ، بل إن الله عز وجل ينتظر من عبده أن يذكره كما يذكر أباء لعظم مكانة الأب في حياة العرب حتى قبل الإسلام .

أيها الأخوة الكرام :

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَاتُكُمْ)

[سورة التوبه : ٢٤]

لماذا قدم الأب ؟ قيل : لأنه موطن الاعتزاز الاجتماعي ، ولا أدرى لصالح من تضعف مكانة الأب والمعلم في العالم ، لا أدرى لصالح من تضعف مكانة الأب والمعلم في شتى بقاع الأرض ، أي أب يحرص على ابنه حرضاً يفوق حد الخيال لو أنه أزعج ابنه في قضية ثانوية جداً الابن يتصل برقم واحد فتأتي الشرطة لتأخذ الأب ويوقع تعهداً ، أعجب عجبًا لا حدود له لمصلحة من تضعف مكانة الأب في العالم الغربي ، وعندنا والحمد لله بقية تمسك أسري ، بقية احترام للأب ، بقية تضحية من أجل الابن .

أيها الأخوة الكرام : يقول بعض العلماء : "من صلى الصلوات المفروضة فقد شكر الله عز وجل ، ومن دعا لوالديه عقب الصلوات المفروضة فقد أدى شكر والديه : رب اغفر لي ولوالدي ربى ارحمهما كما ربباني صغيراً".

شروط الشكر :

ولكن بعض العلماء قالوا : لا يكون الشكر إلا في خمسة شروط حينما يخضع الشاكر للمشكوك ، أي أنت لن تكون شاكراً الله عز وجل إلا إذا خضعت له ، وحينما يحب ، يخضع ويحب ، وحينما يعترف بهذه النعمة ، وحينما يتني عليها ، وحينما لا يستعملها فيما يكره ، تكون شاكراً الله حينما تخضع له خصوص طاعة ، وحينما تحبه حب موالاة ، وحينما تعرف بنعمته ، أبوء لك بنعمتك علي ، وحينما تتني على هذه النعم .

أيها الأخوة الكرام : وحينما لا تستعمل هذه النعمة فيما يكره الله عز وجل . أخ كريم زارنا من بلاد بعيدة ، حدثني بهذه القصة ، صديق ابنه غير مسلم من زنوج إفريقيا ، هذا الزنجي الصديق رأى صديقه يقبل يدا والديه احتراماً لهم ، ثم إن الأم صنعت طعاماً إكراماً لصديق ابنها ، شيء مدهش ! حرص الأم على إكرام صديق ابنها واحترام الابن لأبيه ، أقسم بالله أنه وهو شاب ، دون أن يسمع كلمة عن الإسلام طلب الدخول في الإسلام ، هذه العلاقات الطيبة ، الإنسان حينما يربى أولاده ، وحينما يرى أولاده حوله في خدمته ، وفي طاعته ، وفي دعوته ، هذه نعمة لا تقدر بثمن .

أيها الأخوة الكرام ، حينما تقر عينك بابنك فأنت في حال لا يعلوه حال .

(وَالَّذِينَ يَتَوَلَُّونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَدُرْيَاتِنَا فَرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

[سورة الفرقان : ٧٤]

الإحسان للوالدين مع طاعتهم فيما يرضي الله :

لكن لئلا يختلط عندنا الإحسان للوالدين مع طاعتهم فيما يغضب الله لا بد من هذا التوضيح ، يقول الله عز وجل :

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَثْبِغْ
سَبِيلَ مَنْ أَتَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَانْبَيِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة لقمان : ١٥]

ما معنى ؟

(لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

[سورة لقمان : ١٥]

قال العلماء : إنكار العلم أحد فروع إنكار الوجود لو سألت أكبر عالم حديث عن حديث ، فقال لك : لا علم لي به ماذا تعني كلمة لا علم لي به أنه ليس بحديث ، لم يطلع عليه ، بل رأه مخالفًا لأصل الكتاب والسنة ، لذلك إنكار العلم أحد فروع إنكار الوجود .

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)

[سورة لقمان : ١٥]

أن تشرك بي من ليس موجوداً في الأصل :

(فَلَا تُطِعُهُمَا وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

[سورة لقمان : ١٥]

سيدنا سعد بن أبي وقاص قالت له أمه : إما أن تكفر بمحمد وإما أن أدع الطعام حتى أموت ، قال : يا أمي لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدة ما كفرت بمحمد ، فكلي إن شئت أو لا تأكل . أيها الأخوة الكرام : قد يتزوج الإنسان امرأة صالحة تطيع الله عز وجل ، محجبة ، لكن الأم أو الأب لا يحبانها ، يأمرها أن يطلقها .

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[الطبراني عن عبادة بن الصامت]

قد يختار الشاب زوجة صالحة مؤمنة وتريد أمه امرأة أخرى متفلتة تعتز بجمالها أمام صويحباتها، هذه الأم وهذا الأب حينما يجبر ابنه على الزواج من لا ترضي الله عز وجل لا طاعة له في معصية الخالق ، هذه حقيقة ، لئلا يختلط بر الوالدين مع معصية الواحد الديان لا بد من هذا التنبية :

(وَإِنْ جَاهَدَكُمْ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكُوا مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعُهُمَا)

ليس معنى ذلك أن تكون قاسياً :

(وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

[سورة لقمان : ١٥]

لم يأمرك الله عز وجل أن تقسو عليهما في الكلام :

(وَصَاحِبِهِمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا)

لكن :

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْتَ بِإِلَيْهِ)

[سورة لقمان : ١٥]

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف : ٢٨]

ومن أدق ما تعني وزن أغفلنا أغلبنا أننا وجدناه غافلاً ، الله عز وجل أجل وأعظم من أن يخلق الغفلة في قلب الإنسان ، عاشرت القوم ما أجبنتهم ؛ أي ما وجدتهم جبناء ، عاشرت القوم بما أبغضتهم ؛ أي ما وجدتهم بخلاء :

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قُلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف : ٢٨]

حق الإحسان ثابت أما حق الطاعة فمتبدل :

أيها الأخوة الكرام ، إذا أمرك الأب أو الأم بطاعة الله فطاعتهما واجبة ، لأن طاعتهما هي طاعة الله عز وجل ، أما إذا أمراك بمعصية :

((لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

[الطبراني عن عبادة بن الصامت]

ولكن ينبغي أن تقف موقفاً لطيفاً حسناً فيه شيء من المرونة ، لكن من منكم يصدق أنه إذا سقط عن الآباء واجب الطاعة لأمه وأبيه هل سقط عنه كل شيء؟ لا والله ، بقي واجب الإحسان ، الله أمرك أن تحسن إليهم إذا سقط عنك واجب الطاعة بقي واجب الإحسان .

ورد في السنة الشريفة أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم وقد قدمت عليها خالتها وقيل أنها من الرضاعة ، وكانت مشركة فقالت : يا رسول الله إن أمي قدمت على وهي راغبة أصلها؟ قال : نعم صلتها ، حق الإحسان غير حق الطاعة والخصوص.

أيها الأخوة : حق الإحسان لا يسقط لأب منحرف ، ولا لأب ضال ، ولا لأب مقصر ، أَدَّ الذي عليك واطلب من الله الذي لك ، حق الإحسان ثابت ، بينما حق الطاعة متبدل بحسب نوع التوجيه الذي تتلقاه من أبيك .

أيها الأخوة ، أنت لا تستطيع أن تقنع أباك لأنك في نظره صغير ، رباك صغيراً ، لكن تستطيع أن تملك قلبه بالإحسان إليه ، فلعل إحسانك إليه يكون سبب هدايته ، وأنا والله أيها الأخوة أعلم آباء كثرين كانت هدايتهم على يد أبنائهم ، لا لأن أبناءهم يملكون الحجة القوية ، لا ، هذا طريق لا يجدي مع الآباء ، لكن الأبناء كانوا محسنين إلى درجة أن قلب الوالدين تعلق بقلب ابنهما المحسن ، فإذا أردت أن ترد الجميل لأبيك فكن محسناً ، قال تعالى أيها الأخوة :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَذْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاءِ وَالْعَشَيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْذُ عَيْنَكَ عَيْنُهُمْ ثُرِيدُ زِيَّةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلَنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

[سورة الكهف : ٢٨]

منهج القرآن ومنهج النبي في العلاقة مع الوالدين :

أيها الأخوة الكرام ، بعض التفاصيل : لا يجوز أن تطع أباك في معصية ، أو لا يجوز أن تطيع والديك في معصية ، ولا في ترك طاعة ، ولكن أجاز بعض العلماء إرضاء للوالدين ترك الواجب الكفائي ، في الجهاد واجب فرضي فرض عين على كل مسلم ، وفي الجهاد واجب كفائي ، إذا كنت وحيداً لوالديك وأمرالك أن تبقى في خدمتهما وأن تؤثر خدمتهما على الجهاد الكفائي العلماء أشاروا إلى وجوب إرضاء الوالدين بالبقاء إلى جنبهما ، وهناك أحاديث كثيرة تؤكد هذه الحقيقة ، ويمكن للابن أن يحب أمه وهو في الصلاة ، في الصلاة النافلة إذا أيقن أنها تهلك إن لم يحبها .

أيها الأخوة ، هذه التفاصيل يرجى إليها في مصادرها الكثيرة :

(وَصَّيَّرْتَنَا إِلَيْنَا بِوَالدِّيْهِ حَمَلْتَهُ أُمَّهُ وَهُنَّ عَلَىٰ وَهُنَّ وَفَصَالُهُ فِي عَامِينَ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلَوَالدِّيْكَ
إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

[سورة لقمان : ١٤]

الصحابي الجليل ابن عباس استتبط أنه يبقى الحمل في بطن الأم ستة أشهر بقوله تعالى

(وَصَّيَّرْتَنَا إِلَيْنَا بِوَالدِّيْهِ حَمَلْتَهُ أُمَّهُ وَهُنَّ عَلَىٰ وَهُنَّ وَفَصَالُهُ فِي عَامِينَ)

[سورة لقمان : ١٤]

وفي آية ثانية ثلاثة شهراً لو طرحتنا العامين من الثلاثين كانت أقل مدة في بقاء الجنين في الرحم ستة أشهر .

أيها الأخوة الكرام : هذا هو منهج القرآن ومنهج النبي عليه الصلاة والسلام في العلاقة مع الوالدين، حق الطاعة قائم إذا أمراك بما يرضي الله ، وحق الطاعة يسقط إذا أمراك بمعصية ، بينما حق الإحسان لا يسقط أبداً ، وفرق كبير بين عبادة الله وبين الإحسان للوالدين والأية الدقيقة :

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالْوَالَّدِيْنِ إِحْسَانًا)

[سورة الإسراء : ٢٣]

أيها الأخوة الكرام ، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلانتخذ حذرنا ، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

* * *

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولـي الصالحين ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم ، اللهم صل وسل وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

رسالة إلى مدخن مسلم :

أيها الأخوة ، الشيء العجيب أنك تلقـي أحياناً برجل على مستوى رفيع في تحصـيله الدراسي أو على مستوىً رفيع في قدراته الذاتية ، ثم تفاجـأ أنه يـدخـن ، لا بد من أن تـغيرـ النظرـةـ لهذاـ الرـجـلـ ، كـيفـ يـدخـنـ ؟ـ ماـ وـصـلـ إـلـىـ عـلـمـيـ فـيـ هـذـيـ الـيـومـيـنـ أـنـ إـحـدـيـ شـرـكـاتـ التـدـخـينـ فـيـ عـالـمـ تـقـرـبـ أـرـبـاحـهاـ مـنـ مـئـيـ مـلـيـارـ دـولـارـ ،ـ هـذـهـ شـرـكـةـ تـعـانـيـ أـزـمـاتـ طـاحـنةـ بـسـبـبـ أـنـ مـبـعـاتـهاـ انـخـفـضـتـ فـيـ بـلـادـ الـغـرـبـ إـلـىـ أـرـبـعـينـ بـالـمـئـةـ ،ـ بـسـبـبـ الـوعـيـ وـالتـبـيـهـ وـالـإـدـراكـ ،ـ بـلـ إـنـ الـدـخـانـ الـآنـ مـنـنـوـعـ فـيـ أـيـ مـكـانـ عـامـ فـيـ الـعـالـمـ الـغـرـبـيـ ،ـ بـالـمـقـابـلـ اـرـتـقـعـتـ نـسـبـ المـدـخـنـيـنـ فـيـ الـعـالـمـ الثـالـثـ أـرـبـعـينـ بـالـمـئـةـ زـيـادـةـ ،ـ لـذـلـكـ عـثـرـتـ فـيـ مـوـقـعـ مـعـلـومـاتـيـ عـلـىـ رـسـالـةـ شـكـرـ إـلـىـ الـمـدـخـنـ ،ـ جـاءـ فـيـ هـذـهـ الرـسـالـةـ :ـ "ـ يـاـ صـدـيقـيـ الـمـدـخـنـ الشـهـمـ هـذـهـ رـسـالـةـ شـكـرـ مـوـجـهـ إـلـيـكـ ،ـ يـاـ صـدـيقـيـ الـمـدـخـنـ هـذـهـ رـسـالـةـ مـنـ

رؤساء الاستثمار والرؤوس الاقتصادية في أمريكا وأوروبا إنهم يشكرونك لأنك وقفت معهم ، وخففت العجز في ميزانيتهم ، ومنعت شركات عندهم من أن تقام عليها الدعاوى نتيجة انخفاض عدد المدخنين في هذه البلاد ، لأنهم هناك في بلادهم يخضعون للعلم بفروضه ونواتله ، ولا يجادلون في الباطل ، ولقد أكد العلم عندهم أن التدخين ضار جداً بالصحة ، ولهذا اضطر أولياء الأمر هناك خصوصاً للعلم أن يمنعوا التدخين في أماكن كثيرة ، والفتيا دون السابعة عشرة منعوا من شرائه إلا بالبطاقة الشخصية حتى نقص عدد المدخنين عندهم بما يعادل أربعين بالمئة فحلت الخسائر الكبيرة في شركات الدخان ، وكادت المعركة تتشعب بين هذه الشركات وعلى رأسها شركة حققت أرباحاً خيالية تزيد عن مئات المليارات ، ولكن شهامتك أيها المدخن المسلم حالت دون هذا الانهيار ، وقامت بالتعويض اللازم ، وحافظت على معدل الأرباح لهذه الشركات ، وضحيت بصحتك ومالك وصحة أولادك وصحة زوجتك وصحة بيتك ، وخالفت أمر الله في تحريم الخبائث والامتناع عن كل تبذير ، لقد بلغت بك الشهامة أيها المدخن مبلغها، فارتفع عدد المدخنين في العالم الثالث وفي البلاد الإسلامية منها بالذات أربعين بالمئة ، فعندئم هبط المدخنون أربعين بالمئة وعندنا ارتفع عددهم أربعين بالمئة .

أيها الأخوة : ثم نقلت عدو الكرم لفتياً في الثالثة عشرة والرابعة عشرة يقفون على أبواب المدارس يتداولون الدخان بينهما وكأنها الحلوى ، لقد صدرت مئات الكتب التي تبرز الأضرار البشعة للتدخين ، ثم وبالتالي الفتاوى المنصفة الجازمة بتحريم التدخين ، ثم تحدث الاقتصاديون عن المليارات التي تستنزف فيها كما رصدوا النسب المئوية التي تؤكد اتهام التدخين لأكثر الأمراض المستعصية التي تصيب الإنسان ، ومع ذلك وقفت يا صديقي المدخن الشهم صادماً ضد كل هذه الدراسات والفتاوی والتقارير ، وقفت مضحياً بكل خصوصياتك العقدية والفكرية مؤمناً بالعولمة ، لقد ضحيت بنفسك من أجل الحضارة الغربية قوية سواء على مستوى صحة الأفراد ، أو صحة المجتمعات ، وقد يكون لك منطق المعمول هؤلاء في الغرب في حاجة إلى الصحة ، وإلى الاقتصاد القوي ليظلو منتجين مبتكرين ، أما نحن وغيرنا في دول العالم الثالث فحاجتنا إلى الصحة قليلة واقتصادنا لا يستحق هذا الاهتمام ، يا صديقنا المدخن الشهم هذه رسالة شكر إليك بلسان الحال لا بلسان المقال ، هم يشكرونك بلسان حالهم من أولياء الأمور ، أما رسالة أمتك الإسلامية فهي شکوی ترفعها إلى الله عز وجل سائلة إيهـاـن يشفـيكـ من مرضـكـ الخـبـيثـ ، وأن يرزـقـكـ الإـرـادـةـ وـالـبـصـيرـةـ ، وأن يجعلـكـ مطـيعـاـ لـدـيـنـ الحـنـيفـ الذـيـ لاـ يـخـالـفـ الـعـلـمـ الصـحـيـحـ فـيـ شـيـءـ مـثـلـماـ يـطـيـعـهـ الغـرـبيـوـنـ فـيـ شـيـءـ " .

أيها الأخوة : المشكلة أن هذا الذي يدخن ينتحر انتحاراً بطيئاً ، وهلرأيتم أبلغ من هذا الإعلان صوروا دخينة وقالوا : انتحار بطيء ، ورسموا رصاصة وقالوا : انتحار سريع ، أمارأيت مصير المدخنين ، إلى متى نحن في غفلة والله أيها الأخوة قبل عامين أو ثلاثة عقد أسبوع لوعية المواطنين من أضرار الدخان ، وتحدث وزير الصحة عندها أنه تلقى اتصالاً هاتفياً من صديق له في أمريكا يؤكّد أن نسب النيكوتين في الدخان المصدر إلى العالم الثالث تختلف اختلافاً كبيراً عن نسبة التي تباع عندهم هناك ، يصدرون لنا الأمراض والضعف ، وتصلب الشرايين ، وضيق الشرايين ، وسرطانات الرئة ، هذا الذي يعلن عن الدخان ويلبس ثياب رعاة البقر ويقول : تعل إلى حيث النكهة هذا مات بمرض السرطان ، وقبل أن يموت قال : كنت أكذب عليكم ، الدخان قتلني . والله أيها الأخوة أتألم من أعماق نفسي حينما أرى مسلماً يدخن كيف تدخن ؟ كيف تدمر صحتك بيديك وصحتك ملك أسرتك وملك بلاد المسلمين ؟ كيف تشتري المرض باختيارك ؟ كيف تذر أموالك ؟ إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول .

أيها الأخوة الكرام : هذه رسالة ساخرة لمدخن يؤدي نفسه ، ويؤدي أسرته ، ويؤدي أمته ، ويؤدي وطنه .

(أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[سورة الانفطار : ٦]

ما الذي خدعك حتى عصيت الواحد القهار ؟ ما الذي خدعك حتى افترفت المعاصي بالليل والنهر ؟ ما الذي خدعك ففرطت في حدود الله ؟ ما الذي خدعك فتهاونت في الصلاة ؟ ما الذي خدعك فأطلقت بصرك في الحرام ؟ ما الذي خدعك فلم تخش الله كما كنت تخشى الأنام ؟ أهي الدنيا أما تعلم أنها دار فناء وقد فنيت ، أهي الشهوات ؟ أما تعلم أنها إلى زوال وقد زالت ، فهو الشيطان ؟ أما علمت أنه لك عدو مبين ، ما الذي خدعك أيها المسلم حتى عصيت الله عز وجل ؟

(أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[سورة الانفطار : ٦]

(إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَافِكُ انتَرَتْ * وَإِذَا الْبَحَارُ فَجَرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ
نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخْرَتْ * يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَكَ)

[سورة الانفطار : ٧-١]

يا أيها الأخوة الكرام ، نحتاج إلى صحة ، نحتاج إلى مراجعة الحسابات ، نحتاج إلى جرد المعتقدات ، نحتاج إلى إصلاح ذات البين ، نحتاج إلى اتباع ما يقوى أجسامنا ، ويفحظ عقولنا ويقوّي علاقاتنا بأسرنا ، هذه خطبة أيها الأخوة والله لا أرجو من خاللها إلا أن تنقلب إلى سلوك ،

إلى علاقات إسلامية ، علاقات مثمرة ، علاقات نافعة ، إلى علاقات تقوي المسلمين وتشد من أزرهم ، وتجعل من ضعفهم قوة .

الدعاء :

اللهم اهدا فينا فيمن هديت ، واعفينا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، واقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، فإنك تقضي بالحق ولا يقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت ، تبارك ربنا وتعاليت ، ولك الحمد على ما قضيت ، نستغرك ونتوب إليك ، اللهم يهب لنا عملاً صالحًا يقربنا إليك ، اللهم أعطنا ولا تحرمنا ، أكرمنا ولا تهنا ، آثرنا ولا تؤثر علينا ، أرضنا وارض عنا ، أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشرنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا ، اجعل الحياة زاداً لنا من كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر ، مولانا رب العالمين ، اللهم اكفنا بحالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمن سواك ، اللهم لا تؤمنا مكرك ، ولا تهلك عنا سترك ، ولا تتسلى ذكرك يا رب العالمين ، اللهم بفضلك ورحمتك أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وخذ بيد ولاتهم إلى ما تحب وترضى ، إنك على ما تشاء قادر وبالإجابة جدير

والحمد لله رب العالمين